وأنا أكتب تنظر لي الوَزَغة×

ياسين طه حافظ

بين أناسٍ لا اعرفهم. كل يتحدث عنها:
كيف تَسلّق للضوء،
كيف رأى في مدنِ التهريب براءتَها ،
كيف اصطدمت جبهتُه في لحم البقرة
ورأى أحشاءَ مدينتِه ...

كل قالْ:
لستُ الأول لست الثاني لست العاشرْ
خدَعَتْنا الواحدَ بعد الآخرْ .
ابقَ مكانكَ حتى تقف العرباتُ لنمضي
فقد اختلطت أيامُكَ بالطرقات.
لا تسألِ. أنت تعيش مخازنَ ، أسواقاً ، جدرانا
وشبابيكْ
صبراً حتى تقف العربات .

وأنا فوق الكرسي ، تمرّ العجلات على السطحْ ،
اسمعها ترتجّ الجدرانْ.
قال طبيبٌ: "غيّر هذا الكرسيَّ، وخذ
هذي الحبات البيضَ تقيك الصدمة .."
أخطأتُ بحبّات أخرى!

ماذا تنفعني اللهفة للوجه يذكرّني
بجمالٍ لا يفنى
ماذاً ينفعني وأنا أتعثّر في خِرقٍ صوفية
أتوقّى البردَ ومنتظراً يبتسم المعنى؟

تعبَتْ هذي الشجرة
مَن شدّ الريح تطأطئها للأرض.
كل الأغصان الخضرْ
تخسر، وهي تريد الشمسَ، كرامتَها.

صار حديثي وحدي، ما احتجتُ إلى أحد ،
زمنٌ للتدريب على الوحشة.
زمن أتذكر كم أبعدتُ حجاراً وأكفّاً قاتلة
كي أعبر أسيجةً ، حتى اشتعل الأخضر
وعبرتُ، عبرتْ جثث للدفن.

صوت من رأسي مثل السكين:
"انظرِ تلك الغجرية
بارعةً تَحْتَكَ مثل بغيّ
وتقوم بحزن مثل ضَحيّة.."
هذي مدن للغزو.
لغزاة مكتنزينَ لحوماً وحقائبْ.
مدنٌ صُنعَتْ لتكون مباغي.
خذ سجّادَتَكَ. القِبْلةُ للحائط.
ماذا تنفعك السفن اللا تُرضَى في العصر بضاعتُها؟

شيءُ واحد.
سيقوله عنها فقراءُ الجمعة،
ويقوله محترفو نقشِ قصورِ السادةِ،
بستانيو الأمراءْ:
"يا لنظافتها! يا للّمعانْ
يأتي من مخلوقٍ رثٍّ يجثم في قاعْ.."

حسناً إني راضٍ أرجعُ من غير هدايا
فأنا سافرتُ بغيرِ متاعْ.
لو تتركني مخلوقات الطينْ
أبحث في أكوام القشْ،
عمّا يفرح ذاك المحنيَّ كسيراً فوق سياجْ
يضحك منه صيارفةٌ عَجِلونَ وضباط بنياشين.

هو هذا الإدمان على اللاشيء،
أعودُ كأي جهولٍ ثانيةً عاشرةً. أترصّدُهُ
وأراهُ وافقدهُ .
يا معنى العالم يا روح قصيدي
ما زلتُ، كما من قبل، على مذبحة الكون
أحمل قرباني ونشيدي.

هذا الغصن المكسورْ
يرسم فوق الماء القصةَ كاملةً:
يومَ تسلقّتْ الأكتافَ المرتجفة
أشتمُ أبراجَ القلعة... ،
الأكتاف ارتحلت. والقلعة؟
تسخرُ مني أنيابُ نيون وبنادقْ
وأنا في القبو الأول، اقضي السهرةَ وحدي
أقرأ تاريخَ تنانينْ..

ما زلت أحسّ رطوبةَ تلك الأرض على خاصرتي .
هل تدري "القشلةُ" أني مسجونٌ
أمتاراً عنها؟ و"بريد" العالم أني مقطوعْ؟
مصلوب فوق الأرض يسوعْ .
وكما من قبلُ أقيءُ مشاهد ناسٍ يعترفون
وخيوطُ حمَر تجري نقطاً نقطاً هي والكلماتْ.

مشكلتي أني أزعجت المرضى والمطرودينْ
من فرَق الموسيقى وتكايا المعتكفين.
"لا، لن أكذبَ! كفَّ الجلدْ،
هذا ما أعرفه، اعترفُ الآنْ:
كلّفني اللهْ،
اكتب فوق جدران الكون شعاراتْ!"

هو هذا الشرك الصعبْ:
هل يتركني الجالس في الشرفة أربكُ هدْأتَهُ
أم يُرديني؟

الحكمةُ جائرةٌ. والغرفة مغلقةٌ منذ سنينِ
موسيقى الحزن البشري
راكدة فوق الروحْ
قلمي لا يدري ما يكتبهُ، الغرفةُ مغلقةٌ منذ سنينِ

التاريخ المجذومْ
يحتلّ فراشيْ
ويمدّ يديه إلي طبقي.
هل تنجدني "نوزادُ؟ وأراها ثانيةً
تمشي في الفردوس، كما هي في ذاكرتي،
تُنسيني
حَبَّ الامازونةِ، مصاصةِ أجساد الرهبانْ
ورعاة الريفْ،
والآتين حديثاً للميدانْ؟

أُمسك مصطبةً، وكما نوحْ
أجلسُ أو أطفو، لا فرقْ
فكلتا الضفتين تُضيّعُني، لا أعرف
في الاثنين مكاني
العالم حولي لَزِجٌ
والعجلات تدوّرُني وتدوّر أقطاباً معَها، العجلاتْ!

ماذا أفهم من هذي الفوضى ،
من أشكال الطين المشتبكات وهذي الضوضاءْ؟
هل أحدٌ يمنحني سقفاً،
يغلق هذا البابَ المفتوحَ إلى الله لكي ارتاحْ؟

أُغمض عينيَّ بصمتٍ أتذكرُ أوجهَ مَنْ أحببتْ.
أُجلِسهُم في الليل جواري أو فوق سريري
أو مثل الله، أُكلّفُهم بكِتابة أشعاري.

هم أولاءْ
يُقْصون الموتَ وهم أولاءْ
يُنسون المتوحّدَ ما يُفزعهُ
لكني لا آمَنُ أن يحتالَ عليهم
ويمدَّ يديهِ السوداوينِ إلي
يخنقني ويعودْ
لظلام البستان.

قلمي بيدي، نظراتي واجمةٌ
والكفن الأبيضُ يرصدُ وجهي.
هو هذا الكون الأحدب يعبث في جسدي،
يثلمُهُ، ويعطّل مكبسَهُ...،
لوَ أنه نومٌ وغيابٌ،
لو أنه غصنٌ يسقط في غابْ...،
لو أنه... ، إلا هذا الموت الهمجي!

أتعبني المختلفانِ، جمال الدنيا ورداءتها،
روحيَ والتاريخ
خطأ أولد بين مصارف عابسة وبنادقْ
لكني الآن أعيش بأطراف أربعًة مهترئة
أدخل كل مساء طيات زقّاق ناسُهُ
كلُّهُمُ سيموتونَ وأخرج كلَّ صباحٍ من
طيّات زقاقٍ ناسُهُ كلُّهُمُ سيموتونْ.

يا روحي ، يا هذا الشاعر يجلسُ وحدَه،
هل أكملتَ الزحفَ على الأسطرِ،
فوق قناطرَ زائفة؟
هل أحسنت صياغتَها؟
هل أمّنت حراستَها من عطَبٍ؟
... هل تسمعِ قَرْضاً؟
فأراً أو ماكنة:
تَلَفُ تلفُ تلَفُ تلفُ تلَفُ...

دعني أجرع هذي الكأس المسمومة كي لا تعبرْ،
ننظرُ للشمس ونُطْفَأُ نحن مخاليق الزمن المرّ
وتراني آخرَ هذا العمرْ:
مثلِ السحلاة لعقتُ الحائطَ
ألتذُّ بملح خسارتي
وأقضّي عمري أزحف فوق جدارِ
أخرجُ للناس لساني
أوهمُهم أني ملتذٌّ بفرائس أحزاني.
لو تغسلني أضواءُ الفجرْ
فأعود طرياً وجديداً، لا صوتٌ جرّحني
ما لوّثني خطْمُ دخانٍ.
....
الوَزَغه
ينظر لي منتظراً أن يحتلّ مكاني!

× الوَزَغة: هي السحلية (مذكر ومؤنث)، وقد عاملته آخر القصيدة معاملة المذكر بإيحاء التسمية الشعبية "أبو بريص"

قناديل

لطفية الدليمي

في الحياة ما يستحق الحياة وأكثر

تشيع في ثقافتنا الاجتماعية المخلخلة مفاهيم مغلوطة كثيرة منها عدم الاعتداد بالطقوس الجمالية سواء في الطبيعة أو فيما يجاورنا من أشياء وموجودات أو عبر التمتع بالأعمال الفنية من موسيقى وفنون تشكيلية وأفلام سينمائية، فالبعض من البشر لا ترتعش روحه لرؤية ضوء يومض في السماء أو لرؤية براعم طرية على نبتة جافة كانت موشكة على الفناء والبعض لا تهزه نغمات موسيقى وينظر إلى النصب والتماثيل نظرة مستهجنة لا تحرك فيه أية جارحة بإحساس جمالي أو وجداني وبعض الناس في مجتمعاتنا المغلوبة على أمرها – اعتاد العيش في أحياء وشوارع مزدحمة وجو ملوث محاطا بالنفايات والمزابل دون أن يحرك ساكنا أو يبادر لفعل شيء مثلما يفعل اليابانيون الذين يشكلون مجموعات عمل لتنظيف الأحياء السكنية مناوبة ومن يتخلف من السكان يعاقب بمضاعفة العمل شهرا إضافيا.

من دون الفن والجمال تضمر الروح وتتحول إلى مجرد نبض وأنفاس فلا يتخصب العقل ولا يغتني القلب بالمشاعر والأحاسيس ولا يفيض التعاطف من الروح إلى خارجها نحو الكائنات والأشياء الجميلة ، ومن لا يستطيع تذوق الجمال وصنعه وترويجه في المساحة المكانية التي يتحرك ويعيش فيها من مساكن وأحياء وشوارع – سيعجز عن مواجهة الظلم والقبح – بل سيعتبر الظلم مسألة قدرية ويعد القبح أمرا عاديا عندما تعتاد نظرته رؤية النفايات والمزابل يوميا، فيتقبل الظلم والقبح دون مقاومة او رفض بسبب تخليه عن الإحساس بضرورة العمل والتضحية والتضامن والإقرار بأهمية الجمال في حياتنا.

إن قبول البشر بالحرمان وعدم الثورة عليه والقبول بالقبح المحيط بهم وعدم السعي لتغييره ، تؤدي بالنتيجة إلى تبلد الأحاسيس وموت المشاعر واللامبالاة إزاء العالم والمستقبل، فكل فرد يعيش من اجل مكسبه ولحظته الراهنة حسب – مما يؤدي إلى التحول أو الانمساخ إلى كائنات تعمل من اجل تلبية حاجاتها الغريزية الأولية فقط (الطعام لأجل إدامة الحياة والجنس لأجل حفظ النوع) في حياة كئيبة خالية من أي معلم من معالم الجمال ، ويفضي تبلد الأحاسيس هذا الى انعدام حالة التضامن والتعاون والتساند بين البشر الذين انحصرت أنشطتهم في حدود ضيقة جدا لا تتعدى إدامة الحياة وتأدية الأعمال اليومية المكررة والتعامي أو العمى إزاء جماليات الوجود التي ترهف النفوس وتهذب الأحاسيس وتخفف نزعات العنف لدى البشر، وتقلل الرقة وتدفق المشاعر العذبة والحنان والتذوق الجمالي – من مشاعر المرارة والغضب والحقد التي تمتلئ بها نفوس البشر لأسباب كثيرة منها القمع والحرمان وافتقاد الأمان وسلب الحريات وغياب الأمل ..

لقد أدى انعزال الناس وقطع الأواصر بين فئات المجتمع لأسباب سياسية أو اجتماعية وحتى اقتصادية – إلى الانفصال الطوعي أو الانفصال القسري بين البشر فتأجج الخوف من الآخر وعزل الإنسان نفسه في وحدة مريعة متغاضيا عن حقيقة عظيمة هي أن حياتنا – حياة الإنسان على الأرض إنما هي هبة عظيمة ينبغي رعايتها والاهتمام بتطويرها وإمدادها بنفحات من الجمال المتاح والإيمان بقدراتنا على تطوير مجتمعنا عبر التضامن والتسامح لنستطيع بعدها مواجهة الظلم والتجبر والقوى الغاشمة المهيمنة التي تتحكم بمصائرنا..

الحياة زاخرة بالجمال لمن يرى ويتذوق: ففيها تتنوع الألوان: في الأعمال الفنية والملابس او في الطبيعة وتغيراتها وازدهارها وذبولها ونهوضها مرة أخرى وفيها الأصوات من أغاريد الطير وصفير الريح ونغمات الموسيقى وحفيف الشجر وتدفق الماء وفيها الروائح الشذية من الأزاهير والشجر والعشب والعطور وفيها اللمسة الإنسانية الحانية والنظرة والكلمة الطيبة التي تعزز الثقة بالنفس والناس والوجود، ففي الحياة حقا ما يستحق الحياة على رأي محمود درويش...

في مهرجان "كان" السينمائي الدولي

الأوكراني لوتشينيتسيا والروماني مونجو يضعان أيديهما على جوائز المهرجان

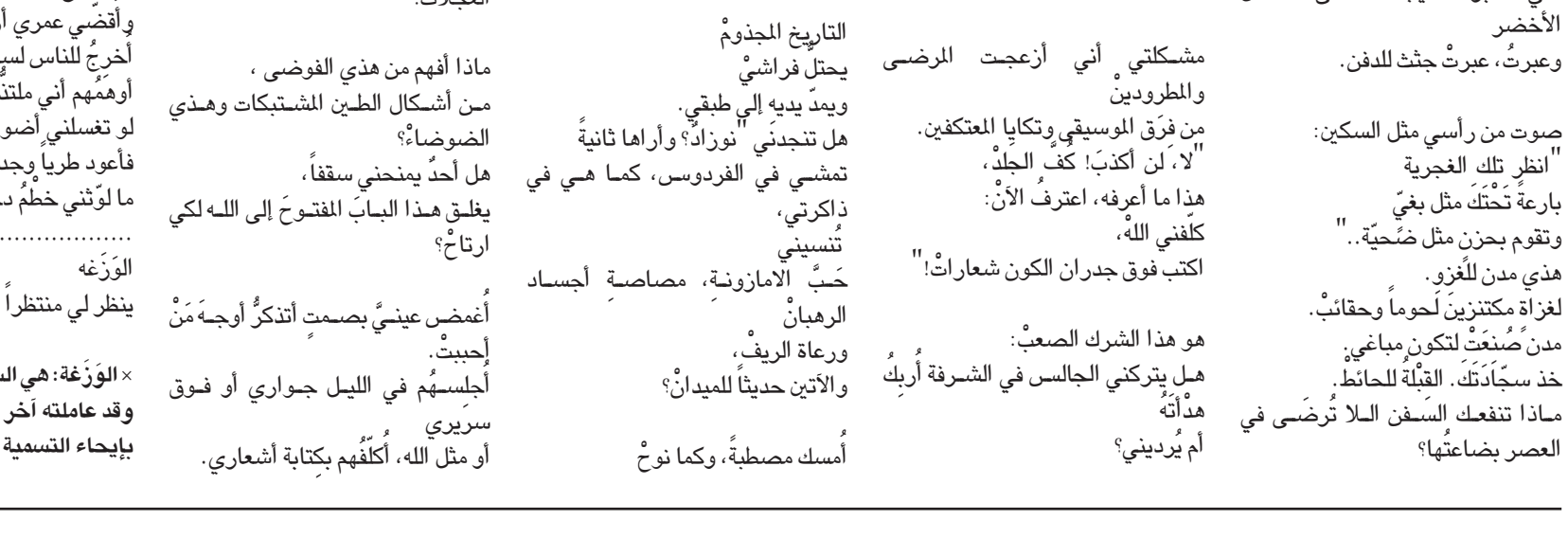

"كان" / عرفان رشيد

و كنتُ ضمن لجنة التحكيم الدولية للدورة الخامسة والستين لمهرجان كان السينمائي الدولي لأقترحت على رئيسها المخرج والممثل الايطالي نانّي موريتّي أن يقسم السعفة الذهبية وجائزة لجنة التحكيم الخاصة بين فيلمي "في الضباب" للأوكراني سيرغي لوتشنيتسا، و"وراء التلال" للروماني كريستيان مونجو. ولأقترحت على موريتّي أيضاً أن يمنح جائزة أفضل ممثلة إلى الفرنسية الحسناء ماريون كوتيار عن دورها العسير في فيلم "صدأ وعظام" للفرنسي جاك أوديار، وجائزة أفضل ممثل إلى النجم المسرحي والسينمائي الفرنسي دينيس لافان لتعقّد ما أناطه به المخرج الفرنسي المتميّز ليوس كاراكس في فيلم "هولي موتورز". لقد دلّل لافان من خلال الدور على قدرة تمثيلية عالية ورائعة ورحل بين أكثر من عشر شخصيات تداخلت في ما بينها وتقاطعت وتباينت عمرياً وشكلياً وأدوات. وبرغم قناعتي بأن هذا الممثل دخل مفكرة أعضاء لجنة التحكيم منذ اللحظة الأولى، فإنه لا ينبغي تناسي وجود نجم كبير مثل الفرنسي جان لوي ترينتينيان، الذي حضر المهرجان بدور في فيلم "حب" للمخرج النمساوي مايكل هانيكة. بالتأكيد ستأخذ لجنة التحكيم الدولية باعتبار كبير عودة هذا الفنان إلى المهرجان بعد أكثر من عشر سنين، وقد لا يعود إلى كان في وقت قريب بسبب انتقائيته للأعمال التي يشارك فيها وكونه في عمر متقادم. أو قد تستحدث له اللجنة جائزة خاصة تُصاغ على مقاسه.

ما أقول عبارة عن تكهنات لا أكثر، وقد لا يتحقق منها أي شيء لكن ما شاهدناه في هذه الدورة من المهرجان أبرز هذه الأفلام وهؤلاء النجوم.

حاملون لخطايا الآخرين

لا فرق لدي أن ينال الأوكراني سيرغي لوشنيتسا أو الروماني كريستيان مونجو السعفة أو جائزة لجنة التحكيم الكبرى، فكلاهما يستحقانها وكلاهما أنجزا فيلمين رائعين يعبّران عن كنه السينما الحقيقية من دون رتوش أو فذلكات إخراجية أو مؤثرات خاصة. ففيما كانت كاميرا مونجو، كعادته، بمستوى النظر، ولم تتعدَّ انتقالاتها عن أكثر من خمس وعشرين حركة، فقد تمكن لوتشينتسا من تحريك تلك الكاميرا بأناة وعناية كبيرتين منحت عين المشاهد قدرة الرؤية دون تلصّص متحوّلاً إلى المراقب الأساسي لما يجري أمام ناظريه.

ومنح الحوار الهادئ القريب من الهمس، في كلا الشريطين، المشاهد إحساس من يقرأ كتاباً في سرّه، مستمعاً إلى صوته الداخلي، أو كمن يجلس أمام أناس (ونساء في حال فيلم مونجو) قرروا تقديم شهادتهم النهائية التي تقرب من الوصية، لكن دونما استعطاف مجاني للمشاعر أو للشفقة.

واستند كلا الفيلمين الى ثلاثي بدأت بهم المأساة وتنتهي بهم. فها هو مونجو يقارب من جديد بين صديقتين حميمتين تسعى إحداهما (آلينا - أدتها كريستينا فلوتير) إلى استعادة الأخرى (فويشيتا-أدّتها كوزمينا ستراتان) بعد أن تركت محل إقامتهما المشترك في برلين وعادت إلى رومانيا لتعيش في دير خلف التلال القريبة من العاصمة الرومانية بوخاريست، لكن ثمة ثالثاً يحول دون إمكان العودة وتتمثّل بالدير الذي التجأت إليه المترهبنة، وباتت المؤسسة الدينية ممثلة بالراهب حاجزاً بين الفتاتين. لكن الحب العميق الذي تحمله الفتاة القادمة من برلين لصديقتها يدفعها إلى الذهاب إلى أقصى الخيارات، أي التضحية بنفسها مصلوبة على صليب بدائي الصنع، بالضبط كما صُلب المسيح.

نفس الصليب يحمله المواطن البيلوروسي فلاديمير سوشينيا (أدّاه ببراعة فائقة فلاديمير سفيرسكي) الذي يعتبره الأنصار المناضلون ضد الاحتلال النازي خائناً ويعاديه المحتل النازي وأعوانه من المتعاونين البيلوروسيين لأنه رفض التعاون معهم، فيستنبط القائد النازي للمنطقة طريقة لعينة لعقابه بإبقائه على قيد الحياة دون شنقه مع زملائه في باحة القرية، ليموت كل يوم عشرات المرات تحت وطأة الفضيحة والخوف. وحين تحل لحظة تنفيذ حكم الاعدام به من قبل صديق طفولته (بوروف- أدّاه سيرغي كوليسوف) تبدأ المأساة الحقيقية، فبعد أن انتهى سوشينيا من حفر قبره وقبل انطلاق تلك الرصاصة يُصاب بورف بطلق ناري من قبل الشرطة تُرديه جريحاً.

في العادة، وكما هو منطقي في الحالات يُفترض أن يهرب سوشنيا المتهم بالخيانة والمحكوم بالإعدام، إلاّ أنه يربأ بنفسه عن إبقاء رفيقه الجريح عرضة للموت البطيء ونهش الغربان التي تراقب احتضاره المتواتر، وتبدأ رحلة البحث عن طريقة لإيصال الجريح إلى مأوى آمن تحت رقابة بندقية النصير الآخر (فويتيك- أدّاه فلاد إيفانوف)، ويحمل سوتشينيا صديق عمره الجريح على كتفه، بالضبط كما حمل المسيح صليبه في طريق الجُلجُلة. وتتاح له فرصة رواية حقائق الأحداث التي وقعت وجعلت الشكوك تحوم حوله واتهامه بالخيانة وبالتسبب في إعدام ثلاثة من أبناء قريته، لكن الجرح الغائر بسبب الطلق الناري يقتل الصديق الذي لم يتمكن من الاستماع إلى تلك الشهادة، ولذا لن يكون بمقدوره الدفاع عنه أمام محكمة الأنصار.

خيبة كبيرة

لم يحفل هذا المهرجان بأعمال كبيرة للغاية، لكنه حفل بخيبات واضحة ومثيرة للتساؤل، فبعدما شاهدنا عمل الإيطالي ماتّيو غارّوني (رياليتي) لم نكن نتوقّع مشاهدة ما هو أسوأ منه حقاً، وجاء شريط البرازيلي فالتر ساليس "على الطريق" ليثير خيبة كبيرة ويحتل موقع المؤخرة ما بعد غارّوني، وإذا ما دقّقنا بالإمكانات والمواهب التي وضعها منتج الفيلم فرانسيس فورد كوبولا أمام ساليس فإن الخيبة ستكون أكبر، وتزيد هذه الخيبة عندما نرى أن ساليس حوّل كتاباً جميلاً مثل "على الطريق" لجاك كيرواك، إلى مجرّد يوميات لثور جامح وبصّاص عاجز يسجّل الانتصارات الجنسية لذلك الصديق الجامح وانهياره المبكّر.